مفكرة

ام المقاتلين

- « اختاري واحدا ، واحدا فقط » .

وتطلعت المرأة مشدوهة ، لا تصدق ما تسمع . لا بد انها اخطأت الفهم ، او ربما هو لم يفهم بالضبط ما تريد ، لا بد ان الامر كذلك ، يستحيل ان يطلب اليها ذلك .

وكررت الام توسلها ... لقد جاورت المتراس في التل طوال شهرين ، وفخرت باولادها مقاتلين ، ولكن ان يساقوا كالنعاج ...

- « اختار ولدا من اولادي ؟ وكيف اختار ؟!

وكيف تختار الام ولدا واحدا ، تعطيه الحياة مرة اخرى، في حين يساق فلذاتها الاربع الاخرين الى الموت ؟

★ ★ ★

كانت تلك لحظة من لحظات مأساة طويلة اسمها تل - الزعتر . الام واولادها الخمسة امام المسؤول الكتائبي في الدكوانة . من حولهم وحتى مخيم الزعتر ، كانت الجثث تصل المسافات ببعضها . وكتل بشرية تتحرك في كل اتجاه ، تبحث عن منفذ الى الحياة ، في حزام الحصار الفاشي .

- « ولكن ، كيف اختار بين ابني وابني ، بين بعضي وبعضي ، كيف » !

المسؤول الكتائبي بدأ يفقد صبره . فلديه امورا اخرى«اكثر اهمية » من هذه الام الملحاح ، المتوسلة حياة اولادها الخمسة ، يبلغها للمرة الاخيرة وبلهجة الحسم : «الشباب جميعهم يجب ان يموتوا . ولكن اسمح لك باختيار واحد منهم . واحد فقط تأخذينه معك الى حيث تذهبين » ..

في كل مأساة لحظة تمثل قمتها العاتية . لحظة تتفوق دائما على محاولة وصفها . الكلمة فيها تصبح شكلا لا يتسع للاحاسيس .

- « اختار بين ولدي وولدي ؟ تريدني ان اوزع الموت والحياة على اولادي » ؟!

-«اما ان تفعلي او تذهبي وحيدة»، قالها وكأنه لم يلد قط من رحم ام . ولاحظ اولادها ان هذا الطاووس الفاشي المتعنجه قد فقد صبره .

- « دعينا نحسم الامر يا اماه . فليذهب اخي ، » ...

- لا ! فليذهب اخي الاكبر، يستطيع ان يعتني بك ،يستطيع ان ... »

وراحوا يدفعون بعضهم بعض الى الحياة . كل واحد منهم يتسابق الى مقصلة الفاشيين لانقاذ الاخر .

كانت الوقفة على القمة طويلة . كانت اطول لحظات عمر هذه الام الفلسطينية . حسمها الاشقاء بالاصرار : « يذهب اصغرنا معك » . والتفتوا الى جلاديهم . اقتادوهم الى حيث اقتادوا رفاقهم قبلهم . الى حيث اقتادوا اباء وابناء ، امهات واحفاد . ولم يذهب بهم الجلادون بعيدا ، ما همهم لو شاهدتهم امهم يقتلون امامها . فهم لم يولدوا من رحم امهات ... (!)

وامسك صغيرها بيدها . صعدا الى الشاحنة،الى الحياة ؟

★ ★ ★

الطريق كانت طويلة من تل الزعتر الى الحياة في يوم الثاني عشر من شهر اب ، عام ١٩٧٦ . بدت بلا نهاية...

واحتضنت الام ولدها : سأحبه كثيرا كثيرا ، وفوق طاقة الانسان على الحب . ساوهم نفسي هو هم كلهم . ساحاول ان اوهم نفسي ، ساحاول .. اما لهذه المسافة من نهاية ؟!

وتوقفت الشاحنة عند المتحف . ولفت الام ذراعها الاخرى حول فلذتها . ما خطر في بالها بأن تلك اللحظة الطويلة في الدكوانة لم تنته بعد ..

- « فلينزل هذا الفتى » ، قالها الغلام المدجج كمن استهدى على طريدة ، وهو يقف مع امثاله على الحاجز الفاشي - المصيدة التي كانت تلتقط من استطاع الافلات من المصايد الفاشية الاخرى ، التي نصبت على الطريق الطويل بين تل الصمود والمتحف .

وانتفضت الام . شدت بكلتي ذراعيها حول ولدها ، حتى الالم .

- « ولكنهم سمحوا له بمرافقتي ، اعطوني ورقة بذلك . خذها ، اقرأها . كانوا خمسة قبل عدة دقائق . لم يتبق لي غيره . لقد اعطوني ورقة بذلك »، وقاطعها الغلام الفاشي المدجج :

- « الشباب جميعهم يجب ان يموتوا . وليس هناك اوراق نعتمد عليها » .

- « ولكنهم سمحوا له . كانوا خمسة .. واعطوني ورقة »... لم يأبهوا لها . كانت تصرخ ، انزلوا صغيرها . افلت من ايديهم للحظة وتوجه نحوها . قبل يدها :

- « تشجعي يا امي . صحيح اولادك ماتوا ولكنك الان تملكين كل المقاتلين ابناء لك » . وقفل عائدا الى جلاديه . اقتادوه الى الرصيف . كانوا اسرع من سائق الشاحنة ، فقد تمرسوا شهورا طويلة ..

وتحركت عجلات الشاحنة بدورات مثقلة ، تأكل المسافة القصيرة المتبقية من رحلة الدم ، وتعبر البوابة المشؤومة . الجماهير غفيرة هناك . اناس ينتظرون بلهفة ، احتمال/ان يطل مفقود من الاهل من الابناء من الاحباب وصحافيون يتراكضون معهم نحو الشاحنة القادمة ، يسجلون ويلتقطون الصور .

★ ★ ★

- « ما اسمك يا امرأة » ؟

وتتطلع بنظرة زائغة ،

- « قال لي ، اصبحت الان ام كل المقاتلين ، وقبل يدي ، يا ولدي ، قبل ان يأخذوه » ...

■■

رحاب